دار وحبيب...!

للأستاذ محمد سعيد العريان

يا دار ، ليتني ضللت إليك الطريق . . . !

منذ سنوات وسنوات ، كنتِ مَغْدايَ ومَراحي ، وكنتِ سعادتي وأنسي ، وكنتِ دنياي الصغرى ؛ تلتقي عندكِ أمانيُّ الشباب ، وتستيقظ فيكِ أحلام الهوى !

فأين يومك من أمسك يا دار ؟

أما يومك — وا أسفاه — فهذا الذى أرى : كومة من أحجار ، إلا جداراً يريد أن ينقضّ ! وأما أمس . . هل تذكرين يا دار . . . ؟

أينَ ، أين أتى أهلكِ الذين ابتعدتْ خُطاهم على الأيام ؛ وأيّانَ ، أيان تعود لياليك التي طواها الزمان ؟

هنا ... منذ سنوات وسنوات ... أودعتُ قلبي الى ملتقًى موعود ؛ فأين منكِ الوديعةُ يا دار ؟

ما أظن الأيام على سلطانها بقادرة على أن تهدم ذكراكِ فى نفسى !

* * *

ومضيتُ أتخطّى الأنقاض وهى تئن من تحتى أنين الواجد ، حتى انتهيتُ إلى الهيكل المستباح !

يا لله ! كلُّ شئ يوحىّ فى هذا المكان . إنى لأسمع همس الذكرى يُرجِّع فى مسمعىّ حديث الماضى ؛ وإنى لأرى أطياف الحب ترفُّ رفيفَ الحياة ؛ وإنى لأشمُّ من حولى عبير اللقاء يتخطّى بى الزمانَ والمكان ؛ وإنى لأراها هى أمامى ، كأوّل عهدنا يوم التقينا ، فتعارفنا ، فأسررْتْ وأسررتُ النجوى !

مرحبا بكِ يا فتاة ! يا لعينيكِ الساحرتين ! ما لأهدابك تختلج كأنما تغالبين النعاس ؛ ومالك صامتةً لا تنبسين كأننا غريبان فى هذا المكان ؟ ماذا ؛ مالكِ معرِضةً منكِرة. . . ؟

انني أنا هو يا فتاتى كعهدكِ يوم افترقنا على ميعاد . . .

ردّى علىّ لياليّ ، وصِلى يومَنا بماضينا . . .

لقد ابتعدتْ عنى بلا وداع . شدّ ما تسخر منا الأمانى !

* * *

وبدا لى من خلل الدموع شبح يقترب بين الأنقاض . . . ذاك شيخ يدبّ على عكازة لوّحتها السنون . . . يعلو حجراً ويهبط عن حجر ؛ فدنا منى وقد تقلصت شفتاه عن مثل الابتسامة ، أى منظرٍ موحش . . . ؟

قلت : « مَن تكون أيها الشيخ ومالى بك عهد ؟ »

قال : « أنا ... ؟ ما أشدّ حماقة الفتيان ! أنا الزمان ... !

وإنما لى أن أسألك : ماذا تنشد بين هذه الأنقاض ؟ »

قلت : « فى هذا المكان ، أودعتُ شيئاً عزيزاً علىّ ، إنه قلبي ؛ أفتدرى أيها الشيخ أين ألقاه ؟ »

هنا ، فى هذا المكان ، كان لى أهل وأحبّة ، وكان قلبي لديهم وديعة ، إن الدار لتشهد ؛ فانى لأنشد هنا قلبي وشبابي وحبي . . . ! »

قال : « ويحك يامسكين ! أتسألنى ؟ أتسأل الزمانَ أن يردّ عليك مافات . . . ؟ إنك يابنىّ تؤمن بالحب ، فاسأل الحبّ — إن أجاب — أن يردّ عليك ما استودعته . . . ! ما الحبّ يابنىّ إلا خرافة ؛ هل هو إلا أرقٌ يراوح بين جنبيك ، ودموعٌ تقرّح بين جفنيك ، وانتظار يستلب شبابك من عمرك ، وحنينٌ يسترقُ يومك من تاريخك ، وغيرةٌ تسلبك الطمأنينةَ والقرار ، وشكٌ يُنبت فى صدركِ الشوك ؛ وهل هو من بعدُ إلا الندمُ واللهفة والذكرى ؟ أفرأيتَ شيئاً من ذلك يعدل ساعةً من ساعات الشباب ، أو يردّ عليك سعادةً من سعادات الماضى ...؟ هيهات يابنىّ هيهات . . . ! »

ومضى الشيخ على وجهه ، وإن فى صدره لسراً . . . !

* * *

وعدوتُ فى أثر الزمان أُجاذبه السرّ ؛ فما بلغتْ اليه نفسى وغاب فى جوف الظلام . ورجعتُ منكسراً لهفان ، أنهنه أدمعى وأغالب نفسى

وإذا على الطريق شابٌ يبتسم

قال : « مرحباً بك ياصديق ! أراك على حيد الطريق فأين أزمعت السير ؟ »

قلت : « أتراك تعرفنى يا فتى ؛ فمن تكون ؟ »

قال : « أنا . . . ؟ ما أعجب أن تنسى ! أنا رفيق صباك ، وأنيس أحلامك ؛ أنا الأمل . . ! فما أشد أن ينكرنى الشباب ! »

قلت : « معذرةً إليك يا أملى ، وإنما صرفنى عن ذكرك هذاك الزمان ! »

قال : « الزمان . . . ؟ ويحك ! وأين منك الزمان وما تزال فى يديك أيامك ؟ ألا إن الشباب ليصنع بيديه أيامه ، ويخط بيديه تاريخه ، ويُملى على الزمان مشيئته . . . ! ألا إن هذا الشيخ الخرفَ الذى تسميه الزمانَ لعاجزٌ أن ينالك ومعك الشباب والأمل ! »

قلت : « فإنى أفتقد شيئاً هنا . . . فى هذا المكان . . . كان لى أهلٌ وأحبة ، أودعتهم قلبى إلى ملتقىً موعود ؛ فهذه الدار خلاءٌ كما ترى ، إلا أنقاضاً ركمها الزمانُ حجراً على حجر ؛ أفتدلنى أين أجد أحبابى وقلبى ؟ »

قال : « لك الله ولأحبابك ! أحسبتَ أنك وحدك الوفىّ الذاكر ؟ إن فتاتك ما تزال هناك تنتظر ، وإن الوديعة الغالية ما تزال فى الحرز الأمين ! »

قلت : « فما هذه التى تراءت لى هنا ثم تولت معرضة لم تنبس ؟ »

قال : « ويحك ! ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابُها تختلج ؟ إنها تقول : اتبعنى يا حبيبى . . . ! »

قلت : « أفتراها مستطيعةً أن ترد علىّ أيامى ، وقد تولى الزمان وحال المكان ؟ »

قال : « إن الحب لايعرف الزمان ولا يحده المكان ، إنه لشىء من غير دنيانا ، لايخضع لنواميس هذه الحياة ؛ إن العاشق ليذكر على البعاد من يحب ، فاذا الماضى كله بين يديه ، وإذا الذى يهواه تحت ذراعه ؛ وإنهما لاثنان هنا : هو وخيالُ من يحب ؛ واثنان هناك : هى وطيفُ من تهوى . أفرأيتَ الزمانَ والمكانَ ساعتئذ قد استطاعا أن يحولا دون هذا اللقاء ؟ أو رأيتَ شيئاً غيرَ الحب يجعل الاثنين أربعةً فى زمان ومكان . . . . ؟

« ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابُها تختلج ؟ إنها تقول : اتبعنى يا حبيبى . . . . ! »

***

ولمحتُ زهرةً ترفّ رفيفَها فى ظلّ جدار قائم ، وهى تناجى أختها نجوى الحزين الى الحزين ؛ كانتا وحدهما فى هذا المكان رمزَ الحياة بين رموز الموت من تلك الصخور المجدّلة . وإن للأحجار والجماد لحياةً كحياة الناس وموتاً كالذى ماتوا ، إن البيت الآهلَ لحىٌّ بسكانه ما عمروه ، فاذا احتملوا وهجروه فما هو حينئذٍ بيتاً حياً وإن بقيتْ له معالمه وأبوابه ، ومفاتحه وأقفاله ، وإن فى التراب يغطى أرضَه وجدرانه لَمعنًى من معانى القبر !

ودنوت أستمع الى نجوى الزهرتين :

قالت إحداهما لجارتها : « ويلى — يا أختاه — من المقام بين تلك الأنقاض الميّتة ! ما أكاد أشعر أننى زهرة ذات رَوح وعبير . لماذا تَحتَفى الأرض وتزّينتُنى بألوان الربيع إذا كنت لا أرى العين التى تتملّ حسنى معجبةً تَهوَى ؛ ولماذا أنا زهرة إذا انقضت حياتى على وتيرتها بين هذه الأنقاض ؛ لايَشم عبيرى أحد، ولا تتناولنى يدٌ رفيقة . . . ؟ »

قالت أختها : « فانك لتبطرين النعمة ! وإنك فى مقامك هنا لأسعدُ من أخواتٍ لك هناك فى الروض ؛ ما تكاد تتفتح عنهن الأكمام حتى تتناولهن الأيدى ؛ فيوماً فى الحرير على الصدر ، ويوماً فى زهرية على المائدة ؛ ثم هى بعد مع الزبالة تطؤها النعال . . . ! »

قالت : « وهل أنا زهرة إلا أن أكون عطراً يُستَنشى وجمالاً يُشتَهى ؛ ويوماً على صدر، ويوماً فى زهرية ؟ ألا إن يوماً واحداً هناك يُشعرنى جمالى — لخير من أيام هنا على هذا الغصن الشائك ، ما ينفك يَخِزُنى كلما مالت به النسمات ! ألا إنما السعادة قلب وابتسامة ، وإنما الحياة أن أكون شيئاً فى الحياة ! »

وهبّت نسمة عاتيةٌ ، فاذا الزهرة ورقاتٌ منثورة على التراب . . . !

يا ويلتا ! حتى هذه الأشياء تنشد الحب ، وتستوحش من الوحدة والخراب . . . !

أيتها الزهرة التى انتثرت غضّةً عبقة لم تنعم بالحب ؛ كم من قلوب بشرية كقلبك ؛ انتثرت أحلامُها بدداً على أنقاض اليأس والحرمان ، قبل أن تَستَنشى عطرَ الحب ، أو تذوقَ لذة المنى . . . !

عزاءً لك ولى . . . ؟

طنطا — محمد سعيد العريان